جغرافيو القرن الرابع الهجري

الخريطة الدينية والمذهبية لغربي آسيا الإسلامية

للدكتور حامد غنيم أبو سعيد
الأستاذ بكلية العلوم الاجتماعية بالرياض

٣٢

١ ـ مقدمـــة :

خلف لنا القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) عدداً من العلماء المسلمين الذين ألفوا كتبا في علم الجغرافيا ومن أكثرهم تأثيراً وقيمة ثلاثة وهم ، وتبعاً للترتيب الزمني الاصطخري وابن حوقل والمقدسي .

وأول الثلاثة أسمه أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري المعروف أيضاً بالكرخي . وهو أصلا من مدينة اصطخر بإيران الوسطى ، ومعروف عنه أنه كان كثير السفر والترحال لمشاهدة البلاد والكتابة عنها ؛ سافر إلى جزيرة العرب وبلاد الشام ، كما زار إيران وبلاد ماوراء النهر وغيرها ؛ أي أنه زار معظم البلدان التي نحاول رسم خريطتها الدينية والمذهبية في هذه الصفحات .

ويذهب بعض الباحثين إلى القول بأن الاصطخري أنهى المسودة الأولى لكتابه الذي يحمل عنوان « المسالك والممالك » حوالي سنة ٣١٨ — ٣٢١هـ (٩٣٠ — ٩٣٣م) ثم عمل مسودة ثانية لنفس الكتاب حوالي سنة ٣٤٠هـ (٩٥٠م)[1].

وثاني الثلاثة هو محمد بن علي الموصلي الحوقلي البغدادي . أصله من مدينة نصيبين بإقليم الجزيرة ، وهو كمعاصره الاصطخري كان شغوفا بالسفر وزيارة الأقاليم الإسلامية ، وقد بدأ ابن حوقل سلسلة رحلاته من مدينة بغداد في سنة ٣٣١هـ (٩٤٣م) متخذاً من التجارة مهنة له ، في حين أنه كان ، كما يرى بعض الباحثين ، من بين الداعين أو المروجين للأفكار والتعاليم الفاطمية .

زار ابن حوقل في أسفاره الكثير من بلدان العالم الإسلامي في آسيا وإفريقيا ، وهو من هذه الزاوية يشترك مع الاصطخري في أنه زار قسماً كبيراً من البلدان التي نعمل على رسم خريطتها الدينية والمذهبية في هذه الدراسة .

وكتاب ابن حوقل يحمل نفس عنوان كتاب الاصطخري ، أي المسالك والممالك ، كما يحمل أيضاً عنوان « كتاب صورة الأرض[2] » ، وهذا الكتاب يعتبر في بعض أقسامه إفادة مباشرة لابن حوقل من الاصطخري الذي تقابل معه في سنة ٣٤٠هـ (٩٥١ — ٩٥٢م) وفي أقسام أخرى تتضح بقوة أصالة ابن حوقل العلمية ، وإضافاته البالغة الأهمية .

ويذكر عن ابن حوقل أنه رفع المسودة الأولى لكتابه المذكور إلى سيف الدولة الحمداني الذي توفي في سنة ٣٥٦هـ (٩٦٧م) وأنه أيضاً عمل مسودة ثانية للكتاب ذاته حوالي سنة ٣٦٧هـ (٩٧٧م) .

أما ثالث الثلاثة فهو المقدسي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البنّاء الشامي المقدسي البشّاري ، مولده بمدينة بيت المقدس في سنة ٣٣٥هـ (٩٤٦ – ٩٤٧م) وظل على قيد الحياة حتى أواخر القرن الرابع .

والمقدسي ، مثله في ذلك مثل رفيقيه السابقين الاصخطرى وابن حوقل زار بلدان العالم الإسلامي في زمنه وذلك باستثناء الأندلس والسند . وفي سن الأربعين ، ونتيجة لمشاهداته والمعلومات التي جمعها من رحلاته الواسعة ، وضع مؤلفه « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » ، وذلك في مسودتين ، الأولى في سنة ٣٧٥هـ (٩٨٥م) والثانية في سنة ٣٧٨هـ (٩٨٨ – ٩٨٩م) وقد قدم المقدسي المسودة الأولى للسامانيين ، حكام خراسان وما وراء النهر ، أما الثانية فإنه قدمها للفاطميين ، أصحاب مصر وإفريقية .

والمقدسي شغوف بالتجديد والإبداع ، وقد برزت هذه الخاصة في اختياره لعنوان كتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » الذي يختلف عن العنوان الذي اختاره كل من رفيقيه لكتابه . ليس هذا فحسب بل إن خاصة الإبداع العلمي لدى المقدسي قد فرضت نفسها بشكل قوي ورائع في كثير من صفحات كتابه ، ففي الوقت الذي يستطيع الباحث فيه أن يقول عن كتاب ابن حوقل : إنه نسخة أو طبعة عالية من كتاب الاصطخرى ، مع إضافات وزيادات فإنه يجد كتاب المقدسي مختلفاً بشكل جوهري عن الكتابين السابقين ، ليس لمنهجه المتميز فقط ولكن أيضاً لا نفراده بمعلومات وإضافات ؟ يلتفت إليها رفيقاه ، ولعل خاصة الإبداع العلمي هذه والتي تميز بها المقدسي هي التي جعلته في نظر بعض

الدراسين أكثر الجغرافيين العرب أصالة ، أو أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة(٣) .

ولا يفوتني في هذه المناسبة أن أشير إلى علماء آخرين ينتمون إلى القرن الرابع الهجري ، ولهم مؤلفات في نفس الميدان ، ولكنها ، ومن الزاوية التي أعالجها هنا ، لاترقى إلى مستوى مؤلفات الثلاثة السابقين ، ومن هؤلاء ابن الفقيه في مؤلفه « مختصر كتاب البلدان » والهمداني في كتابه « صفة جزيرة العرب » والمسعودي في مؤلفيه « التنبيه والإشراف » « ومروج الذهب »(٤) .

* * *

وإحدى الحقائق أن المؤلفات التي خلفها جغرافيو القرن الرابع الهجري تقدم لنا الكثير من المعلومات التي تنتمي إلى علم التاريخ أكثر من انتمائها إلى علم الجغرافيا ، ويستطيع الدارس بالتحليل والمقارنة أن يستخرج من هذه المؤلفات ، ومن زاوية التاريخ ، العديد من الدراسات سياسية واقتصادية وإجتماعية ودينية ومذهبية وغير ذلك .

وسنحاول هنا أن نقدم واحدة من هذه الدراسات ، وهي عبارة عن محاولة لرسم خريطة دينية ومذهبية ، وسنحصر عرضنا لهذه الخريطة في دائرة البلدان التي تشكل القسم الغربي من آسيا الإسلامية ، ومعروف أن العالم الإسلامي في قارة آسيا آنذاك كان يمتد من الشواطيء الشرقية للبحرين الأحمر والأبيض في الغرب ويمتد حتى يشمل السند وبلاد ما وراء النهر في الشرق ، ومن المحيط الهندي في جزئه الذي يطلق عليه بحر العرب في الجنوب إلى الأقسام الجنوبية من بحر قزوين في الشمال .

وهذه منطقة شاسعة تضم العديد من الأقاليم ، ولذا فإننا سنكتفي بالقسم الغربي منها ، وهو ذلك ، الذي يضم الأقاليم التي تشكل أقصى الغرب من العالم الإسلامي في آسيا . وهذا القسم من الجنوب إلى الشمال يتكون من ، شبه الجزيرة العربية فبلاد الشام ، ثم الجزيرة الفراتية .

وفي دائرة تحديد الإطار العام للخريطة التي نحاول تقديمها هنا نقول : إن مؤلفات الجغرافيين المسلمين في القرن الرابع الهجري ، وخاصة الاصطخرى وابن حوقل والمقدسي ، تعالج العالم الإسلامي فقط ، وهي لا تخرج وراء الحدود إلا في القليل النادر ، وفي حالة وجود أقليات إسلامية هنا أو هناك ، وهذا يعني أن الخريطة التي سنقدمها من خلال هذه المؤلفات تعتبر خريطة للعالم الإسلامي في الجزء الغربي من آسيا الإسلامية وذلك في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) .

هذا من حيث الإطار العام ، أما في داخل هذا الإطار فإنه كانت توجد أقليات دينية ؛ نصرانية ويهودية وصابئة ، متناثرة هنا وهناك في داخل بعض الأقاليم في غربي آسيا الإسلامية ، كما أن المسلمين ، وفي مختلف أنحاء آسيا الإسلامية ، لم يكونوا جميعاً من أتباع مذهب واحد من المذاهب الإسلامية المختلفة ، وعلى هذه الجماعات المذهبية وتلك الأقليات الدينية سيقوم عملنا في رسم هذه الخريطة لرسم بعض زوايا تاريخنا الإسلامي في القرن الرابع الهجري

كما أود أن يكون واضحا أن غايتنا في تقديم هذه الخريطة هو تحديد المناطق التي كانت توجد بها الأقليات الدينية ، مع التعرف بقدر الإمكان على شكل توزيع الجماعات المذهبية ، وهذا مع الابتعاد عن الخوض

في الأفكار والمباديء التي تقوم عليها هذه المذاهب ، وذلك الأمر في منتهى البساطة ، هو أن مثل هذه الجوانب تخرج بالدراسة عن دائرة التاريخ إلى ميادين أخرى بعيدة عن اهتمامنا المباشر .

٢ – ديار العرب :

بدأ الاصطخرى في عرض كتابه بالحديث عن ديار العرب ، وتبعه في ذلك كل من ابن حوقل والمقدسي . وواضح من المؤلفات الثلاثة أن ديار العرب التي هي جزيرة العرب قد قدمت على بقية أقاليم العالم الإسلامي لمكانتها الدينية المتميزة ، ويكفي أنه من ديار العرب انتشر الإسلام في مختلف النواحي والبلدان في الشرق والغرب ، وفي الشمال والجنوب(٥) .

وقد خص الاصطخرى مدينة مكة والأماكن الأخرى المرتبطة بمناسك الحج بتفصيل دقيق يكاد يشعر القاريء من خلاله أنه انتقل بنفسه إلى هذه الأماكن ، وعلى نهج الاصطخرى في ذلك سار كل من ابن حوقل والمقدسي(٦) .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الاصطخرى في عرضه للمناطق المختلفة في الجزيرة العربية يشير إلى خمس مناطق في كل منها جماعة مذهبية ؛ المنطقة الأولى هي البحرين ويقول عنها(٧) : « ومدينتها هجر . . . . وهي ديار القرامطة » وثانية المناطق تقع في الشمال الغربي من الجزيرة العربية ، بالقرب من جبل رضوى في ناحية ينبع ، وبهذه المنطقة كانت توجد ديار الحسنيين الشيعة ، وعدد بيوتهم ، وهي من الشعر ، حوالي سبعمائة بيت(٨) .

والمنطقتات الثالثة والرابعة تقعان ببلاد اليمن ، ويحدثنا عن واحدة منهما وهي عبارة عن جبل المذيخرة فيقول(٩) . « وهو منيع لايسلك إلا من طريق واحد حتى تغلب القرمطي الذي كان خرج باليمن يعرف بمحمد بن الفضل » . ويعرفنا بالمنطقة الأخرى فيقول(١٠) « وبلاد الإباضية بقرب خيوان ، وهي أعمر بلاد تملك النواحي مخاليف ومزارع ، وأغزرها مياها » .

أما المنطقة الخامسة والأخيرة فهي عمان ، ويقول عنها صاحبنا(١١) « وكان الغالب عليها الشراة إلى أن وقع بينهم وبين طائفة من بني سامة ابن لؤى ، وهم من كبراء تلك النواحي حروب ، فخرج منهم رجل يعرف بمحمد بن القاسم السامي إلى المعتضد فاستنجده ، فبعث معه بابن ثور ففتح عمان للمعتضد ، وأقام بها الخطبة له ، وانحاز الشراة إلى ناحية لهم تعرف بنزوة ، وإلى يومنا هذا بها إمامهم وبقية مالهم وجماعتهم » .

وجلي مما سبق أن ما ذكره الإصطخرى عن الشراة في عمان يتميز بشيء من التفصيل إذا ما قورن بإشاراته السريعة إلى قرامطة البحرين وغيرهم من الجماعات المذهبية الأخرى في الجزيرة العربية .

ونلجأ إلى الهمداني ، ابن اليمن ومعاصر الاصطخرى ، فنجده يقدم لنا إضافة لها أهميتها ، ولكنه في نفس الوقت يغفل الإشارة إلى الجماعات التي تحدث عنها الاصطخرى ، وإضافة الهمداني تتركز على منطقة اليمامة بقلب الجزيرة العربية ، وذلك حين يتحدث عن مدينة الخضرمة والقرى والنواحي التابعة لها حيث أقام فيها الأخيضر بن يوسف العلوي دولته(١٢) .

ويشترك المسعودي مع الاصطخرى في الحديث عن التطورات التاريخية التي وقعت في عمان في سنة ٢٨٠هـ والتي ترتب عليها انهيار دولة الخوارج هناك لتحل محلها السيطرة العباسية ، وأن الرجل الذي كان يتولى زعامة الخوارج آنذاك هو الصلت بن مالك(١٣) .

ونستمر مع المسعودي فنجده يقدم لنا بعض المعلومات التي تعمق معرفتنا بقرامطة البحرين ، فهذا الجغرافي المؤرخ يذكر أنه بعيد سنة ٢٨٧هـ نجح القرامطة في السيطرة على مدينة هجر ، عاصمة البحرين(١٤) .

والمسعودي فيما سبق يتميز بتقديم بعض الإضافات التوضيحية لتعريفنا باسم زعيم الخوارج وبالتاريخ الذي استولى فيه القرامطة على مدينة هجر ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إنه يقدم إضافة لها أهميتها في إطار الموازنة بينه وبين معاصريه الاصطخرى والهمداني ، وتتمثل هذه الإضافة في حديثه عن الزعيم العلوي يحي بن الحسين الحسنى الرسي والجهود التي قام بها حتى نجح في تأسيس دولة له مركزها مدينة صعدة باليمن ، وقد توفي هذا الزعيم العلوي في سنة ٢٧٨هـ وخلفه في الحكم ابنه ، وهكذا تأسست في صعدة إمارة شيعية وراثية(١٥) .

* * *

وننتقل إلى ابن حوقل فنجده يقدم لنا إسهاماً كبيراً في المساعدة على رسم هذه الخريطة ، وتفوز منطقة البحرين من ابن حوقل بالعديد من التفصيلات في أكثر من زاوية منها النطاق الجغرافي لنفوذ القرامطة حيث يقول عنه(١٦) : « وأما البحرين ومدنها وهي هجر والأحساء والقطيف والعقير . . . والخرج وأوال (فهي ديار القرامطة)(١٧) .

ويعنينا من هذا النص تحديد اسم أوال ، وهي الجزيرة الأم في الخليج العربي في المنطقة المواجهة للبر الذي كان يحمل آنذاك اسم البحرين(١٨) ، كما يعنينا أيضاً ذكر اسم الخرج كواحدة من مدن البحرين أو المدن الخاضعة للقرامطة . وعلى افتراض أن الخرج التي تحدث عنها ابن حوقل كانت في منطقة الخرج التي نعرفها حديثاً والتي تبعد عن مدينة الرياض حوالي خمسين ميلاً إلى الجنوب(١٩) — أقول : على هذا الافتراض فإن ذلك يعني أن منطقة نفوذ القرامطة في بعض الفترات الأولى من القرن الرابع الهجري كانت تمتد من جزيرة أوال في الشرق إلى مدينة الخرج في الغرب .

وبالنسبة للشمال والجنوب فإن ابن حوقل يعرفنا بأن نفوذ القرامطة شمل في بعض الفترات إقليم عمان في الجنوب ، وأن بعض البارزين من رجالهم كانوا يقيمون بصفة دائمة بالكوفة وعلى مقربة من مدينة البصرة في الشمال(٢٠) .

وفوق ذلك فإن ابن حوقل يسجل حقائق أخرى عن جزيرة أوال ، منها أن الجزيرة كانت إلى حدما موطناً خاصاً لنسل أبي سعيد الحسن بن بهرام ، مؤسس دولة القرامطة ، ولنسل ابنه سليمان ، وأن نسل أبي سعيد لظهره يصل عددهم إلى حوالي الأربعمائة مابين رجل وامرأة(٢١) ، وأن هذه الجماعة من القرامطة كانوا يتميزون بين الآخرين بإطلاق صفة المؤمنين عليهم ، وذلك بالإضافة إلى امتيازات أخرى(٢٢) .

وإلى جانب تحديد نطاق النفوذ الفعلي للقرامطة في بعض فترات القرن الرابع الهجري ، وهو ما أشرنا إليه سلفا ، يبين ابن حوقل أن القرامطة كان لهم أيضاً نفوذهم الأدبي الذي يفوق في مجاله نطاق نفوذهم الفعلي من الناحية الجغرافية ، ويتمثل ذلك في الضريبة التي كانت تؤدي إليهم

من بادية البصرة وبادية الكوفة وطريق مكة ، كما يتمثل أيضاً في المراسلات التي تمت بينهم وبين بني حمدان ، والتي ترتب عليها أن بايع الحمدانيون القرامطة ، وأخذت عليهم العهود بموالاتهم(٢١) .

والمعلومات التي قدمها ابن حوقل فيما يتصل بالحمدانيين لها قيمتها الكبرى إذ أنها تحدد طبيعة العلاقات بين الجانبين على الأقل في بعض المراحل بل وتكاد توصي بأن نجاح الحمدانيين في تأسيس دولتهم في حلب والموصل كان إلى حدما نتيجة للتبعية أو الموالاة التي أعلنوها للقرامطة .

وماعدا حديث ابن حوقل عن القرامطة في البحرين فإن المعلومات التي يقدمها عن الجماعات المذهبية الأخرى في الجزيرة العربية تكاد تكون نسخة أخرى لتلك التي أمدنا بها الاصطخرى ، وخاصة فيما يتصل بالحسنيين وديارهم بالقرب من جبل رضوى(٢٤) ، وأيضاً عمان والتطورات التي واجهت الشراة بها(٢٥) .

أما بالنسبة لجبل المذغيرة باليمن فإن ابن حوقل يضيف إلى ما قدمه الاصطخرى بعض المعلومات التي لها أهميتها ، وذلك حيث يقول(٢٦) : « والمذغيرة جبل كان يسكنه الجعفري . . . يسكنه الخوارج وهو دار هجرة لهم ، ومات به عبد الله بن وهب الراسبي وعبد الله بن إباض ، وكانت المذغيرة قديماً لأسعد بن أبي يعفر ثم غلب عليها محمد بن العقل الراعي الأصل لأهل المغرب » .

ومن هذا النص تتبين لنا قيمة جبل المذغيرة بالنسبة للإباضية من الخوارج ، فقد كان دار هجرة لهم ، وبه مات اثنان من أبرز زعمائهم ، كما يتبين لنا من النص شيء من التطورات التاريخية التي تتابعت على المذغيرة ابتداء من الربع الأخير من القرن الرابع الهجري . ومعروف من

الناحية التاريخية أن ابن الفضل قد انهارت دولته في العقد الأول من القرن الرابع (٢٧) ، وهذا يعني أن مذهب الخوارج ظهر هناك بعد ابن الفضل ، وكان لايزال ظاهراً حتى وقت ابن حوقل .

ويتميز الاصطخرى على ابن حوقل في أنه تحدث عن مخلاف خيوان ، إلى الجنوب من صعدة ، حيث كانت توجد على مقربة منه بلاد الإباضية ، في حين يتميز ابن حوقل على الاصطخرى في أنه تحدث عن بني الأخيضر ودولتهم في اليمامة ، وابن حوقل في هذا يشترك مع الهمداني ، ولكنه يزيد عليه حينما يعرفنا أن من كان باليمامة من ربيعة ومضر ، ونتيجة لسيطرة الاخيضر عليها ، قد رحلوا عنها واستقروا في مصر على مقربة من أسوان (٢٨) .

وطبيعي أن المعلومات التي أمدنا بها ابن حوقل قد عمقت معرفتنا بالتوزيع الجغرافي للجماعات المذهبية في الجزيرة العربية ، وذلك من ناحية التفصيلات التي ألقت المزيد من الضوء على ما تحدث عنه كل من الاصطخرى والهمداني والمسعودي .

* * *

ويأتي الدور على المقدسي ، وللحقيقة فإن هذا الجغرافي له إضافاته العلمية القيمة ، وإن هذه الإضافات كان لها أثرها الكبير في إثراء معرفتنا بالعناصر المكونة للخريطة المذهبية في الجزيرة العربية إبان القرن الرابع وهو القرن الذي شهد حياة المقدسي .

وينفرد المقدسي عن السابقين بالإشارة إلى وجود جماعة يهودية في ناحية قرح بوادي القرى ، ويقول المقدسي عن هذه الناحية (٢٩) : « بلد

شامي مصري عراقي حجازي » وبالنسبة لليهود أيضاً يقول الهمداني (٣٠) : « وبخيبر قوم من يهود وموال وخليطي من العرب » .

ويتفق المقدسي مع من سبقوه في الإشارة إلى وجود الشراة في عمان والقرامطة في البحرين ، وذلك بدون تفصيل كذلك الذي قدمه الاصطخرى وابن حوقل عن الشراة في عمان ، أو كذلك الذي أمدنا به الأخير عن قرامطة البحرين (٣١) . وبالإضافة إلى ذلك فإن المقدسي يعمق معرفتنا بالناحية التي كان يسود فيهـــا الشيعة من بني الحسين ومن بني جعفر في ينبع وما جاورها (٣٢) .

وفي إطار توزيع الجماعات المذهبية في بلاد اليمن يلقى المقدسي الضوء على بعض الحقائق التي لم نعثر على مثلها لدى سابقيه ، وذلك بالنسبة لحضرموت التي يقول عن أهلها (٣٣) : « لهم في العلم والخير رغبة إلا أنهم شراة » .

وهكذا يتبين لنا أن المقدسي ، وهو الذي أمضى باليمن سنة كاملة (٣٤) كانت معرفته بأحوال هذه البلاد أكثر دقة وشمولا من معرفة السابقين لها ، على الأقل من الزاوية التي نعالجها هنا .

ولعل أهم ما ينفرد به المقدسي أنه قدم مسحاً عاماً به معلومات هامة تكاد تكون كافية لرسم أبعاد الخريطة المذهبية في شبه الجزيرة العربية ، وذلك في قوله (٣٥) : « ومذاهبهم بمكة وتهامة وصنعاء وقرح سنة ، وسواد صنعاء ونواحيها مع سواد عمان شراة غالية ، وبقية الحجاز وأهل الرأي بعمان وهجر وصعدة شيعة ، وشيعة عمان وصعدة وأهل السروات وسواحل الحرمين معتزلة إلا عمان ، والغالب على صنعاء وصعدة أصحاب أبي حنيفة والجوامع بأيديهم ، وبالمعافر مذهب ابن المنذر ، وفي نواحي نجد

اليمن مذهب سفيان . والأذان بتهامة ومكة يرجّع ، وإذا تدبّرت العمل على مذهب مالك ، ويكبر بزبيد في العيدين على قول ابن مسعود . . . والعمل بهجر على مذهب القرامطة ، وبعمان داودية لهم مجلس » .

ليس هذا فحسب ، بل إن شغف المقدسي بالتفصيل وحبه لتقديم المزيد والجديد من المعلومات يحمله أحيانا على إبراز مدى تأثير الاختلافات المذهبية على العلاقات بين الجماعات المختلفة مذهبياً في المدينة الواحدة ، ومن هذا المستوى قوله(٣٦) : « يقع بين الخياطين وهم شيعة والجزارين وهم سنة بمكة ؛ عصبيات وحروب . . . وبين السنة والشيعة بينبع . . . وبين الجزارين والأعراب باليمامة ، وقد بلغ من أمرهم أن اقتسموا الجامع ، ويقولون للغريب : كن من أينا شئت وإلا فاخرج » .

* * *

ويلاحظ على هذه الناحية الدينية أنه لم يكن يوجد بديار العرب دين آخر سوى الدين الإسلامي ، أما ما أورده المقدسي عن وجود جماعة يهودية في شمال وادي القرى فيلاحظ أن هذه المنطقة كانت منطقة حدود أو « بلد شامي مصري عراقي حجازي » كما ذكر هذا الجغرافي . وما قيل عن شمال وادي القرى يمكن أن يقال نظيره عن خيبر التى ذكر الهمداني عنها أنه كان يوجد بها جماعة من يهود .

ومن الناحية المذهبية يلاحظ أنه كان يوجد بالجزيرة العربية العديد من الاتجاهات المذهبية ، فقهية وكلامية وسياسية ، وأن اتجاهات مذهبية معينة قد نجح أنصارها في إقامة كيانات سياسية خاصة بهم ، وذلك مثل الخوارج أو الشراة في عمان ، والقرامطة في البحرين ، وبني الأخيضر العلويين في اليمامة ، ويحي بن الحسين الرسى في صعدة .

وحقيقة هامة أخرى يمكن أن نستخرجها من المعلومات السابقة تلك هي وجود خطين متلازمين في جنوب شبه الجزيرة العربية ، أحدهما للخوارج والآخر للشيعة ، والخطان يمتدان في جنوب شبه الجزيرة من الشرق حيث عمان إلى صنعاء والمذغيرة وحنوان من بلاد اليمن . ولكن يبدو أن خط الخوارج كان أكثر قوة وظهورا من خط الشيعة .

وفي منطقة أخرى من مناطق الجزيرة ، تلك هي المنطقة التي تمتد من البحرين في الشرق إلى اليمامة في قلب الجزيرة العربية ، كان يوجد نظامان سياسيان ينتميان إلى المذهب الشيعي ، وهذا إذا نظرنا إلى الجذور التاريخية للقرامطة وارتباطهم بالمذهب الإسماعيلي الذي تبلور فيما يعرف بالدولة العبيدية (٣٧) .

وحقيقة أخرى يمكن أن نستدل عليها من خلال المعلومات السابقة ، وهي أن جغرافيي القرن الرابع الهجري ، وخاصة الاصطخري وابن حوقل والمقدسي ، لم يتحدث أي منهم عن المذاهب من حيث هي مذاهب تقوم على خصائص فكرة معينة ، بل اكتفوا بالإشارة إليها من خلال الاسم العام ، أي حتى بدون محاولة لتحديد الفرع الذي يشيرون إليه ، وهذا أمر طبيعي لأن الكتب التي وضعوها مؤلفات جغرافية بالدرجة الأولى ، والتفاتهم إلى النواحي التاريخية يتم في مستوى عام ومجمل بعيد عن التفصيل والتحديد .

٣ ـ بلاد الشام :

وإلى الشمال من جزيرة العرب مع انحراف ناحية الغرب ، وبمحاذاة الشاطىء الشرقي للبحر المتوسط تقع بلاد الشام ، وهي في القرن الرابع الهجري

تعني ما يعرف في هذه الأيام بكل من فلسطين وشرق الأردن وسوريا ولبنان وبعض النواحي التي غدت جزءاً من الجمهورية التركية .

ونبدأ مع الاصطخري فنجده ومن زاوية الأقليات الدينية ، يشير إلى وجود أقلية يهودية في المدينة الصغيرة أيلة عند نهاية خليج العقبة(٣٨) .

وتتميز بلاد الشام ، أو منطقة فلسطين بصفة خاصة بأنه كان يوجد بإحدى مدنها ، وهي مدينة نابلس ، الموطن الوحيد للسامرة ، وهي جماعة يهودية خاصة ؛ يقول الاصطخري عن هذه المدينة(٣٩) : « وليس للسامرة مكان من الأرض إلا بها » .

وإلى جانب اليهودية أشار الاصطخرى إلى وجود أقليات نصرانية في كل من بيت لحم ومدينة حمص(٤٠) .

وكما هو جلي فان المعلومات التي قدمها الاصطخري عن الأقليات الدينية في بلاد الشام فقيرة إلى درجة كبيرة ، وفوق هذا فإن الاصطخري لم يشر من قريب أو من بعيد إلى وجود جماعات مذهبية في هذه المنطقة أو تلك ، وسيتضح من خلال الصفحات التالية أنه ليس صحيحاً أن نتهم المقدسي بالقصور ، بل هو في ذلك يعرض الواقع الذي كان عليه الإسلام في القرن الرابع الهجري .

ونلتفت إلى المسعودي ، معاصر الاصطخري ، فنجده يخطو بنا خطوة كبيرة وهامة في تعريفنا بالأقليات الدينية ومواطنها في بلاد الشام وذلك في كتابه « التنبيه والإشراف » . ويتحدث المسعودي في هذا الكتاب عن وجود أقليات نصرانية في كل من حمص وأنطاكية ، بل إن المسعودي له فيما يتصل بالأقليات الدينية إضافة علمية هامة ، وذلك حيث يذكر

عن مدينة أنطاكية أنها كانت مقراً أو كرسيا لواحدة من البطريركيات الخمس التي تقوم عليها الديانة النصرانية (٤١) .

وإلى جانب ذلك ينفرد المسعودي بالحديث عن وجود جماعة نصرانية متميزة في بلاد الشام تنسب إلى مارون . أحد أبناء مدينة حماه ، وإليه تنسب المارونية من النصارى في زمن المسعودي والذين كانت توجد جمهرتهم في جبل لبنان وسنير وحمص وأعمالهما كحماه وشيزر ومعرة النعمان (٤٢) .

وللحقيقة نقول : إن الإضافة العلمية التي قدمها المسعودي هنا تعتبر إضافة بالغة الأهمية ، وذلك لعدم عثورنا لدى جغرافيي القرن الرابع الآخرين على شيء من المعلومات يتصل بتحديد مكانة أنطاكية في الديانة النصرانية ، أو يشير إلى المارونيين ومواطن تواجدهم في بلاد الشام .

* * *

ونطالع ابن حوقل فنجد لديه بعض المعلومات التي تساعدنا في بعض النواحي التي لم يلتفت إليها أي من الاصطخري أو المسعودي ، ويضاف إلى ذلك بعض المعلومات التي تؤكد أو تعمق ما سبق أن أشار إليه هذان الجغرافيان .

ففي دائرة الأقليات الدينية يتفق ابن حوقل مع الاصطخري في الإشارة إلى أن مدينة نابلس بفلسطين هي موطن السامرية ، وبهذا الصدد يقول (٤٣) « ويزعم أهل بيت المقدس أن ليس بمكان من الأرض سامري إلا منها أصله » .

ومن الواضح أن نص الاصطخري له دلالة تختلف عن دلالة نص ابن حوقل ؛ فنص الأول يفيد أن السامرة لا وجود لهم إلا في مدينة

نابلس ، على حين أن نص ابن حوقل يفيد بوضوح أن مدينة نابلس هي الموطن الأصلي للسامرية الذين ربما يكونون قد رحلوا عنها واستقروا في مواطن أخرى .

ويبدو أن الاصطخري قد خانه التعبير ، ذلك لأن المسعودي يتحدث بقدر لا بأس به من التفصيل عن السامرة أو الأسامرة ، ويحدد ما يفترقون فيه عن بقية اليهود ، وهو عدم اعترافهم بنبوة داود عليه السلام ، وفي تحديد مواطن الأسامرة يقول المسعودي(٤٤) : « والأسامرة في وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ببلاد فلسطين والأردن ، وفي قرى متفرقة مثل القرية المعروفة بعارا ، وهي بين الرملة وطبرية ، وغيرها من القرى إلى مدينة نابلس ، وأكثرهم في هذه المدينة ، أعني نابلس ولهم جبل يقال له طوريك ، وللأسامرة عليه صلوات في أوقاتها » .

ومهما يكن من أمر . فإنه من الإضافات التي تحسب لابن حوقل قوله بالنسبة للسامرة : « وبالرملة منهم نحو خمسمائة مجزى(٤٥) » وهذه المحاولة لتحديد العدد التقريبي لمن كانوا موجودين بمدينة الرملة من السامرية تفتح أمامنا الطريق لتخيل مدى الكثافة التي كان يتمتع بها أبناء هذه الجماعة في مدينة نابلس التي كانت مركزهم الرئيسي .

ويتفق ابن حوقل مع الاصطخري في الإشارة إلى وجود جماعات نصرانية في كل من بيت لحم ومدينة حمص ، وينضم إلى هذين الجغرافيين ثالث هو ابن الفقيه وذلك بالنسبة للمدينة الأخيرة(٤٦) .

ومن إضافات ابن حوقل أيضاً إشارته إلى أن سكان مدينة ملطية كانوا من الأرمن(٤٧) ، ومعروف عن الأرمن أنهم نصارى يعاقبة ، ويشترك

المسعودي مع ابن حوقل في توضيح هذه الجزئية ، وذلك في قوله(٤٨) : « وصاحبهم (أي الأرمن) اليوم بناحية حلب ببلاد قنسرين والعواصم ، وكرسي اليعاقبة رسمه أن يكون بمدينة أنطاكية ، وكذلك لهم كرسي في مصر » .

وبالنسبة لمدينة ملطية أيضاً ، وفي إطار الإضافات التي قدمها ابن حوقل نقول : « إن هذا الجغرافي قد أشار إلى أن ملطية كانت أول مدينة انتزعها البيزنطيون من العالم الإسلامي ، وذلك في سنة تسع عشرة وثلاثمائة(٤٩) .

ويتفق الجغرافيان ، الاصطخرى وابن حوقل ، في عدم الإشارة إلى الجماعات النصرانية التي كانت موجودة في مدن أخرى بفلسطين ، وخاصة بيت المقدس ، ولعل ذلك يعود إلى أن وجود هذه الجماعة كان من الظهور بحيث لم يكن ، ومن وجهة نظرهما ، في حاجة إلى توضيح أو بيان .

ولعل أهم ما أسهم به ابن حوقل هو حديثه ، الواعي والمفصل عن المدن والنواحي في خط الحدود أو الثغور الشامية ، والمراد بها المنطقة الفاصلة بين الامبراطورية البيزنطية وبلاد الشام الإسلامية . وحديث ابن حوقل عن هذه المنطقة له أهميته البالغة لأنه زارها ومكث فيها فترة كافية من الزمن ، وهذا يعني أنه لمس عن كثب عملية التغيير في موازين القوى بين المسلمين والبيزنطيين ، وهي العملية التي كانت تجرى بشكل متتابع على مدى معظم سنوات القرن الرابع الهجري . وقد أثرت هذه العملية تأثيراً جوهرياً في كل مدن الحدود ، وذلك من الناحيتين السياسية والدينية .

ففي الناحية السياسية انحسرت السيادة الإسلامية ليحل محلها النفوذ البيزنطي ، ومن الناحية الدينية فإن المد البيزنطي قد ترتب عليه

بالضرورة تفريغ مدن الحدود من أغلبيتها الإسلامية ، وفي الوقت ذاته فيها تزايدت العناصر النصرانية .

وهذا يمكن استنتاجه بسهولة من حديث ابن حوقل عن منطقة الحدود سواء في ذلك تلك المنطقة المصاقبة لشاطيء البحر المتوسط من مدينة أنطاكية في الجنوب إلى طرسوس في الشمال ، والمنطقة الأخرى الممتدة من(٥٠) البحر إلى مدينة بالس على الشاطيء الغربي لنهر الفرات .

وقبل ابن حوقل تحدث المسعودي عن زاوية أخرى من زوايا موازين القوى بين المسلمين والبيزنطيين ، تلك هي عملية الفداء ، أو تبادل الأسرى التي كانت تتم بين الجانبين كل عدة سنوات ، وأول فداء حدث في القرن الرابع هو الفداء التاسع الذي حدث في سنة ٣٠٥هـ ، وآخر فداء شهده المسعودي هو الفداء الثاني عشر الذي حدث في سنة ٣٣٥هـ(٥١) ، ويقول عنه المسعودي(٥٢) : « وفضل للروم على المسلمين قرض مائتان وثلاثون لكثرة من كان في أيديهم » .

والعبارة الأخيرة في نص المسعودي تعطينا مؤشرا عن الاتجاه العام لموازين القوى بين الجانبين ، وأن هذا الاتجاه كان يتحرك في صالح البيزنطيين وللباحث أن يربط بين عبارة المسعودي هنا وما سبق أن ذكره ابن حوقل عن مدينة ملطية وأنها كانت أول المدن الإسلامية سقوطا في أيدي البيزنطيين وأن سقوطها حدث في سنة ٣١٩هـ .

* * *

وكما هي عادته فإن المقدسي يمدنا بمزيد من المعلومات التي تساعدنا على إكمال بعض النواحي التي غابت عن المسلمين السابقين ، أو تفيدنا

في إلقاء المزيد من الضوء على بعض الجوانب التي سبق أن أشار إليها هذا أو ذاك بشكل عام وسريع .

فبالنسبة للنصرانية يشير المقدسي إلى وجود جماعات من أتباعها في كل من لد وبيت المقدس وبيت لحم(٥٣) . وإلى جانب هذه الإضافة العامة فإن المقدسي ينفرد بالإشارة إلى الكثافة العددية للنصارى في بيت المقدس التي ينتمي إليها هو نفسه ، وذلك في قوله(٥٤) : « قليلة العلماء كثيرة النصارى » . كما يقول عنها وفي الصفحة نفسها : « لامجلس نظر ولا تدريس ، قد غلب عليها النصارى واليهود ، وخلا المسجد من الجماعات

وفي العبارة السابقة يقدم المقدسي إضافة علمية لها قيمتها ، ذلك أنه يؤكد أن الغلبة في بيت المقدس من الناحية العددية للنصاري واليهود مجتمعين وكونه بدأ بالنصارى يشير إلى أن عددهم كان يفوق عدد اليهود .

ولا تقف إضافات المقدسي عند هذا الحد ، بل إنه وكما هي عادته في نهاية حديثه عن كل إقليم ، يقدم لنا مجموعة من المعلومات لها فائدتها المباشرة في إثراء معرفتنا عن الأقليات الدينية وتوزيع الجماعات المذهبية من ذلك قوله عن إقليم الشام(٥٥) : « قليل العلماء كثير الذمة ولاخطر فيه للمذكورين ، والسامرة فيه من فلسطين إلى طبرية ، ولا تجد فيه مجوسياً ولا صابئا » .

هذا عن الأقليات الدينية ، أما بالنسبة للمسلمين ومذاهبهم في بلاد الشام فإن المقدسي يقول(٥٦) : « مذاهبهم مستقيمة ، أهل جماعة وسنة ، وأهل طبرية ونصف نابلس وقدس وأكثر عمان شيعة ، ولاماء فيه لمعتزلي ، إنما هم في خفية ، وببيت المقدس جماعة من الكرامية لهم خوانق ومجلس ، ولا ترى به مالكيا ولا داوديا ، وللأوزاعية مجلس بجامع دمشق والعمل كان فيه على مذهب أصحاب الحديث ، والفقهاء شفعوية ، وأقل

قضية أو بلد ليس فيه حنفي ؛ وربما كانت القضاة منهم . . . والعمل اليوم على مذهب الفاطمي(٥٧) » .

ومن هذا النص يتبين لنا أن المذهب الذي كان سائداً في بلاد الشام في معظم سنوات القرن الرابع الهجري هو مذهب السنة والجماعة ، وإلى جانب ذلك كانت توجد جماعات مذهبية أخرى هنا وهناك ؛ فالشيعة كانوا ظاهرين في المدن الداخلية من فلسطين وأيضاً في عمان ، على حين أن المعتزلة كانوا قلة ولم يكن بإمكانهم الجهر بأفكارهم .

ويبدو من النص أيضاً أنه كان يوجد نوع من التوزيع في الوظائف الدينية بين أتباع المذاهب الفقهية ، فالفقهاء كانوا من أتباع مذهب الإمام الشافعي ، أما القضاة فكانوا من أتباع الإمام أبي حنيفة النعمان .

هذه هي الصورة التي كانت سائدة في بلاد الشام قبل الاستيلاء العبيدي عليها في العقد السابع من القرن الرابع ، ثم حدث بعد ذلك أن ساد المذهب الإسماعيلي ، المذهب الذي كانت تدين به الدولة العبيدية .

ويعمق المقدسي معرفتنا بالعناصر المكونة لهذه الدراسة ، وذلك من خلال بعض التفصيلات والمعلومات الجانبية التي يسوقها في ثنايا الحديث عن هذه الأقلية أو تلك ، فبالنسبة للنصارى يشير المقدسي إلى بعض الأنشطة العملية التي برزوا فيها أو احتكروها ، وذلك في قوله(٥٨) : « وإنما الكتبة به (إقليم الشام) وبمصر نصارى » ، ولم يقف المقدسي عند هذا المستوى التسجيلي ، بل إنه قرنه بالتفسير كما ينطق بذلك قوله(٥٩) : « لأنهم اتكلوا على لسانهم فلم يتكلفوا الأدب » . ومن الممكن قبول التفسير أو التبرير الذي ذكره المقدسي على ما يضاف إليه أن حرفة الكتابة كانت أيضاً أكثر إدراراً للثروة من فن أو حرفة الأدب التي لم يكن من السهل على الكثيرين أن يتمكنوا منها بدرجة عالية .

وإلى جانب هذه الزاوية تحدث المقدسي أيضاً عن زاوية أخرى في حياة الأقليات الدينية ، وذلك في قوله(٦٠) : « وأكثر الجهابذة والصباغين والصيارفة والدباغين بهذا الإقليم (الشام) يهود ، وأكثر الأطباء والكتبة نصارى » .

وتمشيا مع ما هو مشهور عن اليهود من قدرة فائقة على تكوين الثروات بطرق مشروعة وغير مشروعة فإنه يمكننا أن نقول : إن معظم ميادين العمل التي أشار إليها المقدسي في نصه السابق كانت من النوع الذي يدر الكثير من الأرباح .

وكانعكاس طبيعي لكثرة النصارى في فلسطين ، أو القسم الجنوبي الغربي من بلاد الشام ، يحدثنا المقدسي عن أعياد النصارى هناك والتي كان المسلمون يعرفونها جيداً ، ويحددون بها فصول السنة ، وذلك مثل عيد الفصح وقت النيروز ، والعنصرة وقت الحر ، والميلاد وقت البرد ، وعيد برباره وقت الأمطار . . . والقلندس ، ومن أمثالهم إذا جاء القلندس فتدفأ واحتبس ، وعيد الصليب وقت قطاف العنب ، وعيد لد وقت الزرع(٦١) .

وإلى جانب شهرة هذه الأعياد النصرانية في فلسطين وما تقدمه هذه الشهرة من دلالة على كثرة العناصر النصرانية ، في هذا الإقليم من بلاد الشام يذكر المقدسي أيضاً أن الشهور التي كانت سائدة في بلاد الشام آنذاك هي الشهور الرومية التي هي تشرين الأول والثاني ، كانون الأول والثاني . . . الخ(٦٢) .

* * *

وهكذا نستطيع أن نقول : إنه من خلال المعلومات التي أمدنا بها جغرافيو القرن الرابع الهجري ، وخاصة المسعودي بالنسبة لأنطاكية

والمارونية في شمال الشام . وابن حوقل بالنسبة لمنطقة الحدود ، والمقدسي بالنسبة للنصارى واليهود في فلسطين – أقول : إنه من خلال هذه المعلومات قد اتضحت الأبعاد الأساسية لخريطة بلاد الشام من الناحيتين الدينية والمذهبية .

فمن ناحية الأقليات الدينية تبين لنا أن النصارى كانوا يشكلون أقلية كثير عددها في فلسطين وفي جبل لبنان والمناطق القريبة منه ، وأيضاً في أنطاكية وتوابعها .

وإلى جانب النصرانية كانت توجد قلبات يهودية في فلسطين ، بل وفي فلسطين أيضاً كانت توجد الجماعة اليهودية الخاصة المعروفة باسم السامرية . وعدا ذلك فإنه لم يكن يوجد في بلاد الشام أقليات من بين الصابئة أو المجوس .

ومن الناحية المذهبية فإن الأغلبية الساحقة في بلاد الشام كانت من بين أهل السنة والجماعة ، وإلى جانب هذه الأكثرية كانت توجد جماعات شيعية هنا وهناك .

وفي إطار الموازنة بين شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام فإنه من الممكن أن نقول : إن بلاد الشام كانت تتميز آنذاك بعدم وجود العديد من النظم السياسية المذهبية ، وذلك على عكس ما كان عليه الوضع في شبه الجزيرة العربية ، ولعل ذلك يعود إلى وجود أوعدم وجود أقليات دينية ؛ ففي شبه الجزيرة العربية ، ونظراً لعدم وجود أقليات دينية ، تمت الانقسامات المذهبية بين المسلمين ، وتطورت إلى حد تكوين كيانات سياسية متباينة ومن الطبيعي أن العلاقات بين هذه الكيانات كانت في الأغلب غير ودية .

أما في بلاد الشام ، ونظرا لوجود أقليات دينية لها وزنها وخطرها فقد حافظ المسلمون على وحدتهم وقوتهم ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالابتعاد

عن الانقسامات المذهبية ، وحتى لو حدث انقسام مذهبي فإنه لم يكن يسمح له بأن يتطور ويتجسد في شكل إقامة كيانات سياسية متباينة .

٤ – الجزيرة الفراتية :

وإقليم الجزيرة كما يسميه الاصطخري وابن حوقل ، أو إقليم أقور كما يطلق عليه المقدسي ، يراد به المنطقة التي تقع بين نهري دجلة والفرات ، والتي تضم تاريخياً ما يعرف بديار ربيعة وديار مضر وديار بكر . وهو يشكل امتداد البلاد الشام من الناحية الشمالية الشرقية .

والمواطن الأساسية التي كانت توجد بها أقليات دينية كما يحددها الاصطخري هي نصيبين والرها وتكريت ، حيث كان يوجد في كل مدينة من هذه المدن الثلاث جماعة نصرانية كثير عددها ؛ فعن أولى هذه المدن الثلاث يقول الاصطخري(٦٣) : « وبها دير عظيمة وحواليها ديارات وصوامع للنصارى كثيرة » وعن مدينة الرها يقول(٦٤) : « والغالب على أهلها النصارى ، وفيها زيادة على ثلاثمائة دير وصوامع كثيرة ورهابين ولهم بها كنيسة ليس في بلاد الإسلام كنيسة أعظم منها » . ويقول عن مدينة تكريت(٦٥) : « أكثر أهلها نصارى » .

وواضح من هذه النصوص الثلاثة أن النصارى كانوا أكثرية في كل من نصيبين والرها وتكريت ، كما تفيدنا هذه النصوص أيضاً أن المسلمين لم يتعرضوا لكنائس النصارى بشيء من الأذى ، وهذا التسامح الديني وراء الإبقاء على فخامة وروعة كنيسة الرها .

وإلى جانب النصرانية كان يوجد في إقليم الجزيرة أقلية صابئة ، وكان مركز هؤلاء الصابئة هو مدينة حران التي تقع في الشمال الغربي من الأقليم

المذكور ، يقول الاصطخري عن حران : « وحران تليها (أي تلي الرقة) في الكبر ، وهي مدينة الصابئين ، وبها سدنتهم السبعة عشر »(٦٦) .

وما ذكره الاصطخرى عن الأقلية النصرانية في الرها موجود نظيره لدى ابن الفقيه(٦٧) وأيضاً المسعودي . وبالنسبة لمدينة حران والصابئة يحدثنا المسعودي أيضاً(٦٨) ، غير أن حديثه ينصب في المرتبة الأولى على التعريف بالمذهب أكثر من اتجاهه إلى العناصر التي تعني بها في هذه الدراسة .

هذه هي المعلومات التي أمدنا بها الاصطخرى والمسعودي (٦٩) وكذلك ابن الفقيه ، وهي معلومات متطابقة نشعر بعد مراجعتها أننا في حاجة إلى الاستعانة بمصادر أخرى .

* * *

ونفتش لدى ابن حوقل فنجد لديه من المعلومات ما يخطو بنا خطوة هامة في التعرف على الأقليات الدينية التي كانت موجودة آنذاك في إقليم الجزيرة الفراتية .

وعن النصرانية في كل من نصيبين والرها وتكريت نجد ابن حوقل (٧٠) يكاد يكرر ما سبق أن ذكره الاصطخرى ، وذلك باستثناء المدينة الأخيرة التي يقول عنها(٧١) : « وأكثر أهلها نصارى . . . وهي قديمة أزلية ، وتجمع سائر فرق النصارى ، وبها من البيع والأديرة القديمة التي تقارب عهد عيسى عليه السلام وأيام الحواريين » .

وبالنسبة لمدينة حران والصابئة يقدم ابن حوقل نصا يوسع دائرة الرؤية حول هذه الجماعة ، وذلك حيث يقول عنها(٧٢) : « وهي مدينة الصابئين وبها سدنتهم ، ولهم بها طربال كالطربال الذي بمدينة بلخ عليه مصلى الصابئين ، يعظمونه وينسبونه إلى إبراهيم » .

وإلى جانب هذه المعلومات التي يمكن أن يقال عنها إنها تكرار لما سبق أن ذكره الاصطخرى يجد الباحث أن ابن حوقل قد انفرد بإضافتين علميتين أولاهما تتصل بمدينة تعرف بكفر عزى من ديار ربيعة التي يقول عنها(٧٣) : « يسكنها قوم من الشهارجه نصارى ذووا يسار » . أما الإضافة الثانية فإنها ترتبط بمدينة برقعيد ، بين بلد ونصيبين ، ومن خلال ابن حوقل نعرف عن هذه المدينة أنه كان يسكنها بنو حبيب ، وهم عرب من بني تغلب ارتدوا عن الإسلام واعتنقوا النصرانية بعد سنة ٣٣٠هـ(٧٤) .

هاتان هما إضافتا ابن حوقل ، ومما لاشك فيه أن كلا منهما لمأثرها في إثراء معلوماتنا عن الأقليات الدينية في الجزيرة الفراتية .

وابن حوقل له فوق ذلك إضافة أخرى لها أهميتها الكبيرة ، وتتمثل هذه الإضافة في حديثه المفصل عن الأوضاع في منطقة الحدود بين المسلمين والإمبراطورية البيزنطية . وهنا أيضاً يوجه ابن حوقل إلى الأسرة الحمدانية انتقادات مريرة وقاسية ، ويحملها المسئولية المطلقة عن كل مالحق بالمسلمين والإسلام من وهن في منطقة الحدود ، وهو الوهن الذي حدث نتيجة للسياسة الجائرة التي سار عليها الحمدانيون في التعامل مع المسلمين الذين كانوا تحت ولايتهم ، وقد ترتب على هذه السياسة تغلب الروم على كثير من قرى ونواصي الحدود ، بل إن ابن حوقل حمل الحمدانيين مسئولية ارتداد بعض الجماعات في الجزيرة عن الدين الإسلامي واعتناقها للنصرانية ، وتفاني هذه الجماعات في نصرة دينها الجديد على حساب دينها السابق ؛ يقول ابن حوقل عن نصيبين(٧٥) : « ولم تزل على ماذكرته منه أول الإسلام معروفة بكثرة الثمار ورخص الأسعار ، تتضمن بمائة ألف دينار إلى سنة ثلاثين وثلاثمائة فأكب عليها بنو حمدان بضروب الظلم والعدوان ، ودقائق الجور والغشم ، وتجديد كلف لم يعرفوها ورسم نوائب ما عهدوها إلى المطالبة ببيع الضياع والمثقف من العقار ، حتى حمل ذلك بني حبيب إلى أن خرجوا

بذراريهم وعبيدهم ومواشيهم وخفهم الذي يمكن بمثله النقلة ، ومن ساعدهم من جيرانهم وشاركهم فيما قصدوا به من الغصب لعقارهم في نحو عشرة آلاف فارس على فرس عتيق وسلاح شاك من ورع وجوشن مذهب ومغفر مدبج وسيف يقل شبهه ورمح خطي وآله وعدة لم تزل على بلد الروم مطلة ، يقمع بها شوكتهم ويسبى بها ذراريهم ، ويخربون بالاستطالة حصونهم ويجوسون ديارهم . . . فتنصروا بأجمعهم ، وأوثقوا ملك الروم من أنفسهم بعد أن أحسن لهم النظر في إنزالهم على كرائم الضياع ونفائس الحبي والمتاع . . . فعادوا إلى بلد الإسلام على بصيرة بمضاره وعلم بأسباب فساده . . . . فلحق بهم كثير من المتخلفين عنهم وانتمى إليهم من لم يك منهم . فشنوا الغارات على بلاد الإسلام وافتتحوا حصن منصور وحصن زياد ، وساروا إلى كفر تونا ودارا فأتوا عليهما بالسبي والقتل » .

ويستمر ابن حوقل في حديثه المتخم بالأسى والمرارة ، ويبدو أن ابن حوقل كان حريصاً على توجيه نقده القاسي إلى بني حمدان عند ذكر كل قرية أو مدينة تأثرت بالضغط البيزنطي عليها .

وانتقاد ابن حوقل للحمدانيين شهادة على هذه الأسرة ، وهي شهادة بها قدر كبير من الصدق إن لم تكن صادقة تماماً ، وهي إلى جانب ذلك شهادة لها وزنها لأنها جاءت من معاصر عاش في المنطقة مسرح الأحداث فترة من الزمن . واختلط بالمسلمين هناك واستمد معلوماته من مصادرها الأصلية ، ولا يغيب عن الذهن أن ابن حوقل معروف بميوله الشيعية ، وهو في ذلك تجمعه قرابة مذهبية ببني حمدان ، ومعروف عنهم أنهم كانوا شيعة ، بل وكانت تجمعهم بقرامطة البحرين علاقات ودية .

ويستطيع الباحث أن يقبل شهادة ابن حوقل على الحمدانيين ، وفي الوقت ذاته يقبل أيضاً ماتردده كتب الأدب والتاريخ عنهم وعن نضالهم

ضد البيزنطيين ، ولا يوجد تناقض حقيقي بين الموقعين ، ذلك لأن ما اعتبره ابن حوقل ظلما وسوء معاملة من الحمدانيين لرعيتهم كان على ما يبدو الأسلوب الذي لجأ إليه الحمدانيون لحشد قواهم ضد البيزنطيين ، ومن بين هذه القوى القوة الاقتصادية وفي سبيل الحصول عليها اضطر الحمدانيون أن يسيئوا إلى الكثيرين .

* * *

ويأتي الدور على المقدسي ، وبالنسبة لهذا الجغرافي فإننا لانجد لديه إضافات جوهرية لما سبق أن عرفناه من خلال السابقين ، اللهم إلا إشارته السريعة التي تفيد أن الصابئين كان لهم وجودهم في الرها إلى جانب وجودهم الأساسي في مدينة حران ، وأيضاً إشارته السريعة التي يؤكد من خلالها عدم وجود أقليات مجوسية في هذا الإقليم⁽⁷⁶⁾ .

وكما هو منهجه فإن المقدسي يمدنا ببعض المعلومات عن التوزيع المذهبي في إقليم الجزيرة ، ومن هذه المعلومات نعرف أن المذهب الذي كان سائداً هناك هو مذهب السنة والجماعة ، وذلك باستثناء عانة ، وهي مدينة صغيرة على جزيرة في نهر الفرات ، فإنه كان يوجد بها جماعة من المعتزلة أما الشيعة فإنهم كانوا متفرقين في مناطق مختلفة من الإقليم⁽⁷⁷⁾ .

ومن زاوية المذاهب الفقهية فإن الأولوية في الجزيرة الفراتية كانت لمذهب الإمام أبي حنيفة ، ويليه مذهب الإمام الشافعي ، كما أنه كان يوجد بها أتباع لمذهب الإمام أحمد بن حنبل .

هذا كل ما يستطيع الباحث أن يستخلصه من المقدسي بخصوص الأقليات الدينية والجماعات المذهبية في الجزيرة الفراتية إبان القرن الرابع الهجري ، وكما هو واضح فإن هذه المعلومات لا ترقى من حيث الكم أو

القيمة إلى مستوى تلك التي سبق أن قدمها هو نفسه عن كل من شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام . ومن الصعب تفسير ما يبدو من تباين في موقف المقدسي وعلى أية حال فإن عزاءنا أن موقف المقدسي بالنسبة للجزيرة الفراتية لم يخلف فراغاً كبيراً ، وذلك بفضل ما قدمه الجغرافيون السابقون من معلومات .

٥ ـ ملاحظات ختامية :

سبق أن قدمنا بعض الملاحظات في نهاية الحديث عن بلاد العرب ، وأيضاً في نهاية الحديث عن بلاد الشام ، وهي ملاحظات خاصة بكل من المنطقتين ، أما هنا فإن الملاحظات التي نقدمها ملاحظات عامة يمكن إجمالها في النقاط التالية .

- المعلومات التي قدمها هؤلاء الجغرافيون تتسم بالموضوعية في البعد عن التعصب ، وهذه الخاصة تضفي على المعلومات التي قدموها قيمة علمية كبيرة وتجعلها موضع الثقة من جانب الباحثين .
- تفتقر المعلومات التي أمدنا بها جغرافيو القرن الرابع الهجري بصفة عامة إلى التحديد التاريخي وأيضاً إلى الخلفية التاريخية ، وهذا ليس عيبا في مؤلفاتهم التي هي مؤلفات جغرافية في المرتبة الأولى ، وذلك باستثناء المسعودي وابن حوقل فقد غلبت نزعة التاريخ لديهما على طبيعة الجغرافي ، في بعض الأحيان .
- لا يوجد شيء من التعارض بين المعلومات التي أمدنا بها هؤلاء الجغرافيون ، بل الموجود هو التكامل بحيث يمكن القول بأن معلوماتهم قد تضافرت وتعاونت في رسم ، أبعاد الخريطة المقدمة في هذه الدراسة .

- في إشارات هؤلاء الجغرافيين إلى الجماعات المذهبية الإسلامية يوجد قدر أكبر من التحديد ، وذلك بالمقارنة إلى المعلومات التي قدموها عن الأقليات الدينية ، وهذا أمر طبيعي لأن معرفة هؤلاء الجغرافيين بالمذاهب الإسلامية ، وهم ينتمون إلى البعض منها ، كانت أكثر إحاطة من معرفتهم بالجماعات المذهبية داخل الأقليات الدينية ، وذلك باستثناء المسعودي الذي كان يعرف الكثير من التفصيلات عن الأقليات الدينية .

- يقوم المقدسي بتقديم النصيب الأكبر للصورة التي كان عليها توزيع الجماعات المذهبية ، أما فيما يتصل بالأقليات الدينية فإن الفضل في تحديد مواطنها موزع بين الاصطخرى والمسعودي وابن حوقل .

- من بين جغرافيي القرن الرابع فإن الاصطخرى له فضل الأسبقية بل ربما ينسب إليه فضل وضع المنهج الذي قدمت على أساسه المعلومات الجغرافية في القرن المذكور ، أما المسعودي وابن حوقل والمقدسي فإن كلا منهم له فضله بالنسبة للإضافات التي قدمها إلى جانب معلومات الاصطخرى .

- الأقليات الدينية في بلاد الشام وفي الجزيرة الفراتية أقليات موروثة ورثتها الدولة الإسلامية عن الأوضاع الدينية السابقة والتي كانت قائمة قبل الفتح الإسلامي وانتشار الإسلام ، اللهم إلا في بعض مناطق الحدود فقد تنصرّ البعض هناك تحت ضغوط الإمبراطورية البيزنطية ، وقد استمرت هذه الأقليات موجودة في مواطنها حتى وقتنا الحاضر .

- الخريطة المذهبية المعاصرة للمنطقة موضوع الدراسة ترجع جذورها إلى ما قبل القرن الرابع الهجري ، وهذا واضح بالنسبة لكل من اليمن وعمان .

- مذهب السنة والجماعة كان المذهب الذي له السيادة في بلاد الشام والجزيرة الفراتية ، وأيضاً في بلاد العرب ، أما المذاهب الأخرى فإن الازدهار الذي حققه بعضها قد ارتبط بالكيانات السياسية التي قامت باسمها ، وقصر أعمار هذه الكيانات دليل على ما يتمتع به مذهب السنة والجماعة من قوة وأصالة .

- وأخيراً فإنه من خلال المعلومات السابقة يتبين لنا أن الدين الإسلامي قد تميز بالتسامح ، وأنه قد حافظ على هذه الخاصة ، ويكفي للتدليل على ذلك الإبقاء على الأقليات الدينية وعدم التعرض لامتيازاتها الخاصة أو كنائسها ومعابدها ، بل وفتح الباب أمام أبنائها لتكوين الثروات واحتكار الوظائف الهامة .

مصادر البحث

١ - **ابن الفقيه :** أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني
مختصر كتاب البلدان (طبعة ليدن سنة ١٣٠٢ هـ) .

٢ - **الهمداني :** الحسن بن أحمد بن يعقوب
صفة جزيرة العرب (نشر دار اليمامة بالرياض سنة ١٣٩٤/ ١٩٧٤) .

٣ – **الاصطخري :** أبو اسحاق إبراهيم بن محمد
المسالك والممالك ، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي القاهرة ١٩٦١/١٣/١١ .

٤ – **المسعودي :** أبوالحسن على بن الحسين
(أ) التنبيه والإشراف (دار التراث – بيرت سنة ١٩٦٨) .
(ب) مروج الذهب (دار الأندلس – بيروت سنة ١٩٧٣)

٥ – **ابن حوقل :** أبو القاسم محمد بن على
كتاب صورة الأرض (طبعة دار مكتبة الحياة – بيروت) .

٦ – **المقدسي :** شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (طبعة ليدن سنة ١٩٠٦)

٧ – **ثابت بن سنان :**
تاريخ أخبار القرامطة ، تحقيق سهيل ذكار ؛ مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧١ .

٨ – **الحمادي بن محمد بن مالك**
كشف أسرار الباطنية ، القاهرة ١٩٣٩ .

٩ – **كراتشكوفسكي :**
الأدب الجغرافي العربي ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة .

الهوامش

(١) النسخة التي استخدمت في هذه الدراسة من تحقيق الدكتور محمد جابر الحيني ، مطبوعات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة ١٣٨١هـ (١٩٦١م) .

(٢) النسخة التي استخدمت هنا تحمل العنوان الأخير ، وهي من منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت – لبنان .

(٣) راجع مقدمة المحقق لكتاب الاصطخري ، وما كتبه المستشرق الروسي كراتشكوفسكي في كتابه المترجم إلى العربية تحت عنوان « الأدب الجغرافي العربي » ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم – لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، جـ١ ص ١٩٧ – ٢١١ .

(٤) ابن الفقيه هو أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني ، ألف « كتاب البلدان » من عدة أجزاء في أوائل القرن الرابع الهجري ، وقد اختصر هذا الكتاب في سنة ٤١٣هـ (١٠٢٢م) اختصره علي الشيزري . أنظر كراتشكوفسكي ، المصدر السابق جـ١ ص١٦٤ .

أما الهمداني فهو الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني ولد ومات في بلاد اليمن ، وكانت وفاته في سنة ٣٣٤هـ (٩٤٥م) على رأي بعض الباحثين ، أو حوالي منتصف القرن الرابع كما يرى آخرون (راجع الدراسة التي صدر بها حمد الجاسر كتاب صفة جزيرة العرب) تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض سنة ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م) أما المسعودي فهو أبو الحسين علي بن الحسين المسعودي ، ولد بمدينة بغداد ، وتوفي في مدينة الفسطاط بمصر في سنة ٣٤٥هـ أو في السنة التالية (٩٥٦م) .

(٥) الاصطخري ص ٢٠ ؛ ابن حوقل ص ٢٧ ؛ المقدسى ص ٦٧ .

(٦) الاصطخري ص ٢١ – ٢٢ ؛ ابن حوقل ص ٣٥ – ٣٧ ؛ المقدسى ص ٧١–٧٤ .

(٧) ص ٢٣ .

(٨) ص ٢٥ .

(٩) ص ٢٦ .

(١٠) نفس الصفحة .

(١١) ص ٢٧ .

(١٢) صفة جزيرة العرب ص ٢٨٢ ، ٣٠٩ .

(١٣) مروج الذهب حـ ٤ ص ١٥٦ .

(١٤) المصدر السابق حـ ٣ ص ١٧٦ – ١٧٧ .

(١٥) المصدر السابق حـ ٤ ص ١٧٧ – ١٧٨ ، ٢١٦ – ٢١٧ .

(١٦) ابن حوقل ص ٣٣ .

(١٧) زيادة مستفادة من ابن حوقل ص ٣٨ .

(١٨) جزيرة أوال حالياً هي جزيرة المنامة وهي كبرى جزر دولة البحرين .

(١٩) للمزيد عن الخرج في القرن الرابع الهجري اقرأ صفة جزيرة العرب ص ٢٨٣ .

(٢٠) ص ٣٤ .

(٢١) ص ٣٣ .

(٢٢) نفس الصفحة السابقة .

(٢٣) ص ٣٥ .

(٢٤) ص ٤٠ .

(٢٥) ص ٤٤ – ٤٥ .

(٢٦) ص ٤٣ .

(٢٧) الحمادي ، كشف أسرار الباطنية ص ٣٢ – ٣٧ .

(٢٨) ابن حوقل ص ٣٨ .

(٢٩) ص ٨٤ .

(٣٠) صفة جزيرة العرب ص ٢٧٣ .

(٣١) ص ٩٣ - ٩٤ .

(٣٢) ص ٨٣ .

(٣٣) ص ٨٧ .

(٣٤) ص ٨٨ .

(٣٥) ص ٩٦ .

(٣٦) ص ١٠٢ .

(٣٧) عن الصلة المذهبية بين القرامطة والعبيديين اقرأ للمقريزي ، اتعاظ الحنفا ، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة حـ١ ص ١٨٩ وما بعدها .

(٣٨) ص ٣١ .

(٣٩) ص ٤٤ .

(٤٠) ص ٤٤ ، ٤٦ .

(٤١) التنبيه والإشراف ص ١٢٦ ، ١٢٨ .

(٤٢) ص ١٣١ .

(٤٣) ص ١٥٩ .

(٤٤) مروج الذهب حـ١ ص ٧٢ .

(٤٥) ص ١٥٩ ويجزي تعني أنهم يدفعون الجزية .

(٤٦) مختصر كتاب البلدان ص ١١٢ .

(٤٧) ص ١٦٦ .

(٤٨) مروج الذهب حـ١ ص ٣٥٩ .

(٤٩) ص ١٦٦ .

(٥٠) ص ١٦٥ – ١٦٩ .

(٥١) التنبيه والإشراف ص ١٦٤ – ١٦٦ .

(٥٢) المصدر السابق ص ١٦٥ .

(٥٣) ص ١٧١ – ١٧٢ ، ١٧٦ .

(٥٤) ص ١٦٧ .

(٥٥) ص ١٧٩ .

(٥٦) ص ١٧٩ – ١٨٠ .

(٥٧) وهو المذهب الشيعي الإسماعيلي ، والفترة التي يتحدث عنها المقدسي هي الثلث الأخير من القرن الرابع الهجري .

(٥٨) ص ١٨٣ .

(٥٩) نفس الصفحة .

(٦٠) نفس الصفحة .

(٦١) ص ١٨٢ – ١٨٣ .

(٦٢) ص ١٨٣ . وللمزيد عن هذه الشهور وأصلها أنظر التنبيه والإشراف ص ١٨٣ .

(٦٣) ص ٥٢ .

(٦٤) ص ٥٤ .

(٦٥) الصفحة السابقة .

(٦٦) الصفحة السابقة .

(٦٧) مختصر كتاب البلدان ص ١٣٤ .

(٦٨) التنبيه والإشراف ص ١٢٤ .

(٦٩) مروج الذهب حـ١ ص ١١٠ ، حـ٢ ص ٢٣٨ ، ٢٤٠ .

(٧٠) ص ٢٠٤ .

(٧١) ص ٢٠٥ .

(٧٢) ص ٢٠٤ .

(٧٣) ص ١٩٦ .

(٧٤) ص ١٩١ - ١٩٢ ، ١٩٩ .

(٧٥) ص ١٩١ - ١٩٢ .

(٧٦) أحسن التقاسيم ص ١٤٢ .

(٧٧) الصفحة السابقة .

* * *